التداولية وعلاقتها بعلم الدلالة والسيميائية

أ. بوقرومة حكيمة
جامعة المسيلة

تعتبر التداولية آخر مولود للسانيات، وهي تسعى إلى الإحاطة بالدلالة الكامنة في النص وفي نفس منتجه ومتلقيه، وفي عناصر السياق المختلفة المحيطة بعملية إنجازه وأدائه، والتداولية اللسانية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدت انتباه الدارسين والباحثين لاسيما في العقود الثلاثة الأخيرة، مما يستدعي ضرورة الوقوف على هذا المفهوم، بخصوص نشأته وعلاقته بالعلوم والمعارف المختلفة.

لقد عرف مصطلح التداولية "pragmatique" مدلولات عديدة تقلب بينها منذ ظهوره لأول مرة، فقد ظهر لأول مرّة انطلاقا من الأصل اليوناني "pragma" الذي يعني العمل "Action"، ومنه اشتقت الصفة اليونانية ""pragmatikos الذي يحيل على كل ما يتعلق بمعاني العمل "Action"[1].

وقد استعمل المصطلح بعد ذلك لأول مرة في القرون الوسطى في فرنسا في مجال الدراسات القانونية في عبارات، مثل: "pragmatique sanction" و"pragmatica sanctio"، وابتداء من القرن 17م، انتقل المصطلح إلى الميدان العلمي، فصارت "pragmatique" تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يفضي إلى تطبيقات ذات ثمار عملية، وقد شاع المصطلح في الوقت الحالي فأصبح يدرج في عبارات في الاستعمال الجاري، مثل " c'est un esprit pragmatique" و"c'est un pragmatique" لوصف شخص ما له القدرة على إيجاد حلول عملية وحقيقية لمشكل ما[2].

وفي المجال الفلسفي استعمل المصطلح لوصف كل فكرة أو ظاهرة لا تتجلى إلاّ من خلال تطبيقاتها العملية، أي نتائجها المنعكسة على الواقع[3].

أما في الدراسات اللسانية، فتعني التداولية ذلك الاهتمام المنصب على مستوى لساني خاص، يهتم بدراسة اللغة في علاقتها بالسياق المرجعي لعملية التخاطب، وبالأفراد الذين تجري بينهم تلك العملية التواصلية[4]، ويرجع أول استعمال لمصطلح "اللسانيات التداولية" "pragmatique linguistique" إلى الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charles W.Morris ويقصد بها كلّ ما يتعلّق بمظاهر استعمال اللغة وخصائصها، أي الحوافز النفسية للمتكلمين وكذا النماذج الاجتماعية وموضوع الخطاب وغير ذلك، في مقابل المظهر التركيبي الذي يعنى بالعلاقات التركيبية الشكلية، والمظهر الدلالي الذي يعنى بالعلاقات القائمة بين مدلول الوحدات اللغوية والواقع[5].

ويعود الفصل في وضع مصطلح التداولية الموافق لـ "pragmatique" الأجنبية إلى الأستاذ المنطقي والفيلسوف المغربي الدكتور "طه عبد الرحمن" منذ سنة 1970، أي بعد حوالي اثنين وثلاثين سنة من أول تعريف لها في الغرب على يد "شارل موريس" سنة 1938م، وقد حظي مصطلح "التداولية" بالإجماع والتدوال، ولفظة التداول تعني الممارسة المعبر عنها بالبراكسيس (la praxis) وفي هذا المجال تؤكد "فرانسواز أرمينكو" معنى "البراكسيس" عند البعض فتقول: «على التداولية أن تعين مهمتها في إدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل، ويدركها البعض الآخر كمهتمة أساسا بالتواصل، بل وبكل أنواع التفاعل بين الأعضاء الحيّة، بينما عليها بنظر آخرين أن تعالج استعمال العلامات أساسا، وهذا هو منظور أحد المؤسسين، ويدعى موريس»[6].

كما تفيد أيضا لفظة التداول، التفاعل، بالإضافة إلى أنّها من نفس مادة الدلالة التي تتقاطع معها[7].

وقد تناول "طه عبد الرحمن" هذا المفهوم لتقديم منهج التقريب التداولي للتراث الإسلامي، مقترحا مفهوم "المجال التداولي" لينتهي إلى أنّ "تداول" تعني التواصل، وقد عدّه أداة من أدوات تقويم التراث، مؤكدا أنّ الباحثين تلقوه بالقبول، سواء منهم الذين يشتغلون بالتراث، أو أولئك الذين يتعاطون الدراسات اللّغوية[8]. وأصبح مصطلح التداولية متداولا بين الباحثين رغم وجود بعض المصطلحات التي يسعى البعض من خلالها إلى جعلها مقابلا لمصطلح "Pragmatique" مثل: النفعية، الذرائعية، المقامية، علم التخاطب، ...

2- مهام التداولية: تهتم التداولية بجميع شروط الخطاب، وتعتمد أسلوبا ما في فهمه وإدراكه، وتهتم بكيفية استخدام اللّغة، وبيان الأشكال اللسانية التي لا يتحدد معناها إلاّ بالاستعمال[9].

- شرح سياق الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتكلمون خطاباتهم، إذ ينصب اهتمامها أساسا على المتكلم انطلاقا من سياق الملفوظات التي يؤديها إلى جانب تحليل الأفعال الكلامية، ووظائف المنطوقات اللغوية، وسماتها في عمليات الاتصال[10].

- لقد حمل كتاب "المقاربة التداولية" لفرانسواز أرمينكو" جملة من الأسئلة تحدد مهام التداولية، وتشرح وظيفتها في تحليل الخطاب، ويمكن اعتبارها إشكالات جوهرية في تحليل الخطاب الأدبي من جهة، ومن جهة أخرى دراسة اللغة أساسا، ومن هذه الأسئلة: «ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ لماذا نطلب من جارنا حول المائدة أن يمدّنا بكذا، بينما يظهر واضحا أنّ في إمكانه ذلك؟ فمن يتكلم إذن؟ وإلى من يتكلم؟ من يتكلم ومع من؟ من يتكلم ولأجل من؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ ماذا يعني الوعد؟ كيف يمكننا قول شيء آخر، غير ما كنا نريد قوله؟ هل يمكن أن نركن إلى المعنى الحرفي لقصد ما؟ ما هي استعمالات اللغة؟ أي مقياس يحدّد قدرة الواقع الإنساني اللّغوية؟»[11].

– تهتم كذلك التداولية بدراسة العلاقة بين المتكلم والمتلقي وشروطها المختلفة، «حيث تدرس كل العلاقات بين المنطوقات اللّغوية وعمليات الاتصال والتفاعل وتستند إلى علم اللّغة النّفسي وعلم اللّغة الاجتماعي، وتعالج قيود صلاحية منطوقات لغوية (أو أفعال كلامية) وقواعدها بالنسبة إلى السياق»[12]، لذلك يمكن القول إنّ موضوع التداولية هو التواصل البشري الذي يعتمد على دراسة المقام والشروط المناسبة لأداء الكلام.

– من جهة أخرى، تبحث التداولية في مقاصد المتكلّم، وأغراض كلامه، ذلك أنّ المعنى يفهم من السياق، ومن هنا اعتبرها البعض بأنّها « تشرح وضعية التواصل وسياقه، وتفتح أبواب دراسة ما لم يقل، ودراسة الضمني في الحديث»[13].

– فالتداولية إذن تهتم بدراسة استعمال اللغة في الطبقات المقامية المختلفة، أي باعتبارها كلاما صادرا من متكلم وموجها إلى متلق معين في مقام تواصلي محدّد لتحقيق غرض تواصلي ما.

– تهتم كذلك بشرح كيفية جريان العمليات الاستدلالية في معالجة الملفوظات.

– بيان أسباب أسبقية الإستراتيجية غير المباشرة وأفضليتها على الاستراتيجية المباشرة.

– لقد أصبح مفهوم الفعل الكلامي نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، ومعناه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، كما يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية (actes locutoires) إلى تحقيق أغراض إنجازية (actes illocutoires) كالطلب والأمر والوعد والوعيد،... وغايات تأثيرية (actes perlocutoires) تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول[14].

– وبعد أن استوت التداولية في موضوع الأفعال الكلامية، ظهرت أهميتها في تحليل الحجاج، وخاصة عند اللسانيين الفرنسيين، مثل "ديكرو" و"أوركيوني" وغيرهما.

– بالإضافة إلى أنّ التداولية في حقيقتها لم تعرف بماهيتها، بل بإجراءاتها في تحليل الخطاب، وبأنّها تقوم على التفكير اللّغوي وما يتعلق بفعالية الخطاب.

3- علاقة التداولية بعلم الدلالة:

تشهد التداولية توسعا على جميع الصُعُد، فهي مسخرة لوصف ظواهر التناسق النصي، كما يتم تسخير أحد مكوناتها لإدماجه في التحليل النّصي وتنفتح على إشكالات وتخصصات عدة مجاورة لها كعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الدلالة والسيميائية وغيرها.

فعلم الدلالة فرع من فروع علم اللسان الحديث، لذلك كانت علاقة علم الدلالة بالتداولية وثيقة تماما كما أنّ علاقتها باللسانيات وثيقة، ومن جهة أخرى يعود التداخل الموجود بين التداولية وعلم الدلالة إلى أنّ كلا منهما يتناول المعنى، ولكنهما يختلفان في تحديد مستوياته، ومن الدارسين من يعتبر التداولية امتدادا لعلم الدلالة، ولعل الفضل الكبير في التمييز بين هذين العلمين يعود إلى المحاضرات التي ألقاها "أوستين".

لقد ميز "أوستين" بينهما من خلال فكرة الكفاءة والأداء، حيث يصنف علماء اللّغة، علم الدلالة ضمن القدرة (معرفة اللّغة)، أمّا التداولية فتصنف ضمن الأداء والإنجاز واستخدام اللّغة[15]، وبناء على ذلك تقوم التداولية على التبعية لعلم الدلالة الذي يعرّف شروط المعنى وحقيقتها، وتهتم التداولية بدراسة هذه الشروط بربط المعنى بالاستخدام، وتحدّد ما يسمح بنجاح الملفوظ أو إخفاقه[16].

إنّ المقولات التداولية تبنى على المقولات الدلالية، وكذلك لا يمكن أن نحصر علم الدلالة في دراسة المعنى بعيدا عن المقام.

فعلم الدلالة يعالج معنى الجملة في إطار أدنى من الإشارة إلى المقام، بينما تتولى التداولية المعنى ضمن إطار المقام المحدّد المعالم والمقاصد[17].

إنّ التداولية وعلم الدّلالة كلاهما يكمل الأخر، حيث تعنى الدلالة بتفسير الملفوظات وفق شروطها وقيودها النظامية، وتحدّد المعاني الحرفية لها والإشارة إلى أدنى مقاماتها، وفي ذلك خدمة للنظام اللّغوي، وليس لمقاصد المتكلمين، وتصف الكلمات ومعاني الجمل، وتربطها بالصدق والكذب أحيانا، أمّا التداولية فتعنى بما وراء ذلك فتربط مقاصد المتكلم بالبحث عن المقام المناسب، والشروط التي تضمن نجاح العبارة أو الشروط التي تسمح بنجاحها، ولا تهتم بصدقها أو كذبها وتربط بين النص وسياقه، وتكون بين نوعين من المعاني: معنى يستقى من الجمل فيما بينها، ومعنى يستقى من الوحدة الكلامية كاملة (مجال التداولية)[18].

وقد يستقر التحليل التداولي في فك رموز رسالة المتكلم من المحتوى المراد، حتى وإن كانت الرموز مشتركة بين علم الدلالة والتداولية، لأنها قد تحتوي على الضمني والمسكوت عنه، اعتمادا على ما يزودها به السياق من فرضيات حول قصد المتكلم.

وهناك اتجاهات عديدة في البحث التداولي، من بينها: الاتجاه الدلالي الاتجاه التداولي، والاتجاه التكاملي[19]، فالاتجاه الدلالي هو تيار يختزل التداولية في الدلالة ويجعلها بمنزلة الجزء الذي لا انفصال له ولا استقلال له عن الكل، بينما يذهب التيار التداولي إلى اعتبار الدلالة جزءا من التداولية حسب رأي "سيرل" (searle)، بالإضافة إلى الاتجاه التوليدي، وهو تطعيم لدلالة التوليدية بمفاهيم خاصة من فلسفة اللغة العادية، ويمكن إجمال أهم مبادئه فيما يلي:

- الاهتمام بالمستوى التداولي الاستعمالي باعتباره أهم من المستوى الصوري للغة.
- تفاعل البعد التداولي للغة مع البعدين الدلالي والتركيبي.
- تعليق فهم جوانب من اللغة بالإحالة على البعد التداولي.

ومن خلال ما سبق، يمكن الوصول إلى أن التداولية وعلم الدلالة يتضمنان الكثير من الخصائص المشتركة التي تبين بشكل عملي مدى ارتباط هذين المجالين، انطلاقا من المسلّمة التي تقول بأنّ كلّ خطاب دلالي مرتبط على وجه الاطراد بالفعل التواصلي.

4- التداولية وعلاقتها بالسيميائية: تعتبر السيميائية إحدى الحقول المهمة التي نشأت في أحضانها التداولية، ففي تعريف "تشارلز موريس" للتداولية أكد أنّها جزء من السيميائية وتمثل إحدى مكوناتها تهتم بدراسة العلاقة بين العلامات، وبين مستعمليها أو مفسريها (متكلم، سامع، قارئ كاتب،...) وتحديد ما يترتب عن هذه العلامات، حيث حدد أبعاد السيميائية في ثلاثة أمور هي: (20)

- علاقة العلامات بالموضوعات المعبّر عنها، وذلك بعد دلالي يهتم به علم الدلالة.
- علاقة العلامات بالناطقين بها، وبالمتلقي، وبالظواهر النفسية والاجتماعية المرافقة لاستعمال العلامات وتوظيفها، وذلك هو البعد التداولي الذي تهتم به التداولية.
- علاقة العلامات فيما بينها، وذلك بعد تركيبي، يهتم به علم التراكيب.
- إنّ الحديث عن السيميائية والتداولية يطرح على الدارس جملة من التساؤلات، تستدعي رصد التيارات اللسانية التي تقف وراء البرامج العلمية الكفيلة بفهم النشاط اللغوي في علاقته بالموضوعات السيميائية التي يعبئها

المتكلم لإقامة التواصل مع المتلقي، ومن هذا المنطلق تصف التداولية استعمال المتكلمين للأدلة اللغوية بهدف التأثير في الآخرين[21]، وكذا بهدف تحقيق مقاصدهم التواصلية وفي إطار هذا التوجه العام للتداولية تعددت زوايا النظر واختلف أصحابها في مسألة الاقتراب من الفعل الكلامي.

ويهتم "غرايس" بالتأثير الذي يمارسه المتكلم على المتلقي، بغرض حمله على تنفيذ ما طلب منه بشكل ضمني، إذ يعمل "غرايس" في هذه الحالة على إبراز الروابط التي تربط الكلام بالفعل، دون أن يركز في الوقت نفسه على المتكلم (اللافظ) والمتلقي (الملفوظ له) والموضوع السيميائي بوصفهم الأطراف الأساسية في العملية التواصلية التي تسعى إلى تحقيق الفعل التواصلي، فمن هذه المنطلقات ينبغي أن نستعين بالأداوت الإجرائية السيميائية الكفيلة بتقديم إضاءات بخصوص البعد التداولي في الاقتراب من المواضيع السيميائية[22].

ولا شك أن التداولية ستغزو المجالات السيميائية المتعددة، وأنّه بإمكاننا أن نستشف في كل علامة دالة على كون سيميائيات السينما وسيميائيات المسرح، قد أصبحت تعنى الآن بالتدابير التي يسخرها القول والحوار، والضمانة لموضوعة المتفرج أكثر من اعتنائها بالتحليل الداخلي للمحتويات الفيلمية والمسرحية[23].

إنّ الموضوع السيميائي يهتم بالفعل التلفظي، ويبرّر وجود هيئتين هما: اللافظ والملفوظ له، وإذا كان التلفظ هيئة لسانية وسيميائية يفترضها منطقيا الملفوظ وتظهر آثارها في الخطابات، فإنّ الموضوع السيميائي يستعمل للدّلالة على كلّ مجموعة دالة، كيفما كان نوعها (جملة، خطاب سياسي، رواية، لوحة صورة فوتوغرافية، ....) وكيفما كانت أشكال التعبير أو أنواع التجلي (سمعية بصرية، ذوقية، شمية، لمسية، ...) والتي قد تتوحد في سيميائيات تسمى "تأليفية" على نحو ما نلحظ ذلك في السينما التي تشتغل على البصري والسمعي[24].

من جهة أخرى، يدين الدرس التداولي كثيرا لـ "بيرس" (Pierce) وهو من الأوائل الذين اهتموا بدراسة العلامة انطلاقا من مفاهيمها، ويعدّها أساس النشاط السيميائي، حيث اعتبرها أوسع من المجال اللّغوي، وقد عدّت الأسس السيميائية التي أرساها أسسا فلسفية تأملية، وهو يربط فهم اللغة بحال التواصل، ويربط المعنى بظروف الاستعمال[25].

إنّ مصطلح التداولية هو من إجراءات القراءة التحليلية السيميائية للملافظ التي هي الوحدات الصغرى للنص، ويعدّ هذا الإجراء لاحقا وملازما للقراءة القائمة على دلالة المعاني في النص، فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيدا فتلتمس كل الاحتمالات التي يمكن أن يشع بها الملفوظ.

إنّ التداولية هي جزء من السيميائية التي تشكل توسعة كل من النّظم وعلم الدلالة مع الأخذ بعين الاعتبار العلاقة التي تربط بين المتكلم والألفاظ التي ينطق بها، فهو يضع النقط على حروف السياق الوارد في التلفيظ.

إنّ التداولية تسعى إلى إزالة الغموض من عناصر التواصل اللّغوي، وتشرح طرق الاستدلال ومعالجة الملفوظات، فهي على وشك أن تكون مرحلة وسطى بين المعارف اللّغوية المختلفة والمعارف الموسوعية، وتستمد حقيقتها من رافدين مهمين هما: الرافد المعرفي كما تقدّمه بعض المباحث في علم النفس المعرفي، بما في ذلك الاستدلالات والاعتقادات، وغير ذلك، أما الرافد الثاني فهو الرافد التواصلي، المتمثل في أغراض المتكلمين واهتماماتهم، ورغباتهم،... كما تمتاز التداولية بتنوعها المعرفي، وهو السبب الذي جعلها تتفاعل مع علوم مختلفة كعلم الدلالة والسيميائية التي هي علوم يجمعها قبل كل شيء الاهتمام بالمعنى الذي يسعى المتكلم إلى إبلاغه وإفهامه للمتلقي، وإن اختلفت طريقة ذلك بين هذه العلوم.

1- ينظر: الطاهر لوصيف، «التداولية اللسانية»، مجلة اللغة والأدب، قسم اللغة العربية وآدابها جامعة الجزائر، العدد17، جانفي2006، ص9.

2- ينظر: م ن، ص ص:6-7

3 -Voir : Jean Michel, La pragmatique outil pour l'analyse littéraire , Armand colin, Paris,1998, p4.

4- Voir : Maxidico, Dictionnaire encyclopédique de la langue française, édition de la connaissance, 1997, p876

5- ينظر: الطاهر لوصيف، «التداولية اللسانية»، مجلة اللّغة والأدب، ع17، ص8.

6- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة : سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ت ص11.

7- ينظر: إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2006، ص262، نقلا عن: طه عبد الرحمن في ندوة: الدلاليات والتداوليات، أشكال الحدود، منشورة ضمن البحث اللساني والسيميائي، ص299.

8- ينظر: طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص ص 243-244.

9- ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص8.

10- ينظر: فان دايك، علم النص، مدخل متداخل الاختصاصات، ترجمة وتعليق، محمد سعيد البحري، جمهورية مصر العربية، القاهرة، ط1، 2001، ص114.

11- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص7.

12- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2009، ص70.

13 -Gilles Siouffi et Dan Van Raemdonck, 100 fiches pour comprendre la linguistique, Breal, Rosny, Novembre 1999, p51.

14- ينظر: مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 1429هـ/2008م، ص ص 54-55.

15– ينظر: جون ليونز، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: بوئيل عزيز، سلسلة المائة كتاب، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، العراق ط1، 1987، ص ص 31–32.

16– ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص128.

17 –Voir : Dominique Mainguenau, pragmatique pour le discours littéraire, collection lettres, SUP, Dunod, Paris, 1997, p129.

18– ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص ص 129–130.

19– ينظر: إدريس مقبول، الأسس الابستمولوجية والتداولية للنظر النحـــوي عنـــد سيبـــويه ص ص 267–269.

20– ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص ص 67–68.

21 –Voir : Oswald Ducrot et Tezfetan Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Seuil, Points, Paris, 1972, p423.

22– ينظر: رشيد بن مالك، «السيميائية والتداولية»، مجلة اللّغة والأدب، ع17، ص ص 206–207.

23– ينظر: حفناوي بعلي، «التداولية... البراغماتية الجديدة خطاب ما بعد الحداثة»، مجلة اللغة والأدب، ع17، ص70.

24– ينظر: رشيد بن مالك، المرجع السابق، ص211.

25– ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، ص55.